[في الفترة الواقعة بين ثورتي فبراير واكتوبر الاشتراكية ، ولم يكن صدوره معزولا على الاطلاق عن سقوط النظام القيصري] (ص ١٦٤) في روسيا ، لان الامبراطورية البريطانية أرادت خلق خنادق ومعسكرات أمامية في وجه المد الثوري العمالي ، وتمكنت الوكالة اليهودية من توسيع دائرة نفوذها حيث اصبحت [تضم ممثلين عن يهود امريكا غير المنتمين ، رسميا ، الى الحركة الصهيونية] (ص ١٧٧) ، وبذلك جرى ربط أهداف متعددة — السياسة القومية ، والامن ، والاستراتيجية — بهدف [الاستيطان] (ص ١٧٩) ، كما تعاونت الحركة الصهيونية مع الانظمة الفاشية والنازية بقصد اشعار اليهود بعزلتهم وتوحدهم وحثهم الى الهجرة نحو فلسطين ، وينهي المؤلف كتابه بالقول بأنه [على الرغم من ضخامة جهاز القمع العسكري البريطاني الصهيوني لم تهدأ مقاومة الشعب العربي الفلسطيني التي اتخذت شكل ثورة مسلحة عام ١٩٣٩] (ص ١٨٣) . ولكن تمكن مجتمع [المستوطنين المتفوق عسكريا وتنظيميا وسياسيا] (ص ١٩١) وله تاريخ طويل من التعامل والخبرة الاقتصادية ، من تحقيق اهدافه بطرد اكثرية الشعب الفلسطيني ، وليس غريبا [ان تظهر اسرائيل بمظهر « الجيتو » الرجعي المدجج بالسلاح والمرتبط عضويا بالمصالح الامبريالية ، والمستعد دوما للتوسع العنيف ، ولضرب أي تحرك ثوري او وحدوي في المنطقة من شأنه ان يهدد استراتيجية هيمنة نظام العلاقات الامبريالية] (ص ١٩١) . .

من هذا الاستعراض المطول ، لهذا الكتاب المهم ، وبعض تعليقاتنا التفصيلية عليه ، نرى ان الحركة الصهيونية لم تكن حركة ذاتية القدرة والتوجه ، بل على العكس ، فلقد خلقتها ظروف واوضاع اجتماعية واقتصادية عاشتها اوروبا ، وأنمتها تطورات اقتصادية لاحقة ومحددة ، ومن ثم وجهتها أهداف ومصالح امبريالية معينة ، ولكنها ، أي المسالة اليهودية تبقى مسالة جانبية ونسبية ملحقة بالمجتمع الاوروبي ، الا ان الكاتب لم يكتشف او يحاول تبيان الجوانب الاخرى للمسألة اليهودية والحركة الصهيونية ، فبدت ، من خلال عرضه لها وكأنها مسألة حتمية التكون والنمو ، ثم الحل بطريقة انشاء الكيان الصهيوني ، بدون ادنى علاقة لارادة اليهود فيها ، وبدون أي تأثير من تعاليمهم ومعتقداتهم الفكرية والاسطورية والفلسفية ، وبذلك تغاضى المؤلف عن جوانب مهمة انعكس فيها العنصر الاقتصادي والتطورات التاريخية ، كما كان لها الاثر ، بدورها ، على البنية التحتية التي نبعت منها ، ونعني بتلك الجوانب الثقافية والدينية والايديولوجية ، وهي التي كانت تبقي وترتبط رباطا متوترا ، اليهود ، كيهود ، بالمجتمعات الاوروبية وعلاقات الانتاج السائدة فيها ، ومن هنا ، أي من تنحية المؤلف للجوانب الفكرية والدينية والارادية من المسألة اليهودية ، تولدت تلك النزعة التقريرية الميكانيكية التي سيطرت على سياق المعالجة ، بحيث بدت الحركة الصهيونية وكأنها حركة بدون بواعث وعوامل محركة يهودية ، ولكنها حركة ضرورية تفرزها المجتمعات الاوروبية . في نفس الوقت الذي يناقض فيه المؤلف نفسه ، حين يصر على تبلور الخاصية القومية لليهود ، في ستينات القرن الماضي ، في لدن هذه الحركة التي ليس لها القدرة الذاتية ولا الفكر الايديولوجي الكامل والناضج ، وهذا انتقال كيفي مناجيء ، حذر منه ماركس ولينين وغرامشي ، لتراكم عارض وغير جوهري ، وفي الحقيقة ان الفصل الاخير ، لم يأت حسبما شاء توجه المؤلف الفكري ، ولكنه جاء على النقيض ، بتبيان افرادية وانعزالية ارادة كل من هرتزل وبنسكر عن اليهود ، كما ان المؤلف على الرغم من استشهاده بمقولة ماركس بأن لا نبحث عن سر اليهودي في دينه بل نبحث عن سر الدين اليهودي في اليهودي الحقيقي ، لم يقم باستعمالها على الاطلاق ، مما عرض بحثه ، للسقوط في النزعة الميكانيكية الخالصة كما ذكرنا آنفا ، فانصب بحثه على نمطية علاقات الانتاج وحدها ، بدون ان يسبر افرازات هذه العلاقات واثرها في اليهود ، ثم أثر هؤلاء على علاقات الانتاج وتعاملهم معها ، ولقد اوضحنا في السابق ، ان الدين اداة سياسية ، ايضا ، في ايدي الافراد ، وهي منهج اخلاقي عملي لتجنب مواقف معينة او اتخاذها ، أم ان اليهود لم يندمجوا في المجتمعات الاوروبية ، على الرغم من مرور عصور طويلة ، لانهم مرابون فحسب ، بدون صيانة فكرية وعقائدية لموقفهم هذا ، فهو أمر غير معقول على الاطلاق حتى ضمن